

الجزائر من منظار الفكر الرحلي الغربي خلال العهد العثماني، قراءة في الأنساق الثقافية -نماذج مختارة-

Algeria from the perspective of Western nomadic thought during
The Ottoman era, Reading in cultural patterns

-Selected models-

* أميرة مومني¹ / عساسلة فوزية²

Moumeni Amira¹ / Assasla Fouzia²

مخبر الدراسات اللغوية والأدبية.

جامعة 8 ماي 1945، قالمة/الجزائر

University of 8 May 1945, Guelma/Algeria

[1](mailto:moumeni.amira@univ-guelma.dz) / [2](mailto:assasla.fouzia@univ-guelma.dz)

تاريخ النشر: 2024/12/02

تاريخ القبول: 2024/11/04

تاريخ الإرسال: 2024/09/15

ملخص البحث

يعد أدب الرحلة مرآة عاكسة لفكر وتوجه الرحالة ورؤيته الخاصة لكل ما تقع عليه عيناه، وتسمعه أذناه، أينما تحلّ به قدماءه، ولهذا نسعى في هذه الورقة البحثية إلى إبراز صورة المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني؛ من خلال دراسة لبعض النصوص الرحلية الغربية – التي اتخذناها كنماذج مختارة-؛ حيث نهدف للكشف عن الصور التي رسمها الغرب في رحلاتهم عن الجزائر العثمانية، من خلال إظهار الأنساق الثقافية في هذه النصوص الرحلية، متوصلين في نهاية البحث إلى تصوير الرحالة الغربي لحالة الضعف والاستبداد الذي كان يعاني منه الفرد الجزائري في كل المجالات.

الكلمات المفتاحية: أدب الرحلة؛ الرحلات الغربية؛ الأنساق الثقافية؛ المجتمع الجزائري

Abstract

The travel literature is a mirror that reflects the thought and inspiration of the traveler and his own vision of everything that falls on his eyes, and his ear,

* مومني أميرة: moumeni.amira@univ-guelma.dz

wherever his feet go. And for this we seek In this research paper to highlight the image of Algerian society during the ottoman era, through a study of some Western nomadic text – which we have taken as selected models-, where we aim to reveal the images drawn by the west in their travels about ottoman Algeria, by showing the cultural patterns in these nomadic texts, reaching at the end of the research to portray at the western travelers. For the state of weakness and tyranny that the Algerian individual was suffering from in all fields.

Keywords: Travel literature; Western travels; Cultural pattern; Algerian society.



مقدمة:

يعد أدب الرحلة جنسا أدبيا قائما لذاته وبذاته، لما يحمله في داخله من متون متنوعة، ترصد ثقافات واهتمامات الآخر المرتحل، والآخر المستقبل؛ حيث يسعى الرحالة لتقديم صور واقعية منقولة بطريقة حرفية بحتة، وأحيانا مرافقة بصور فوتوغرافية، أو قد تكون صوراً فوتوغرافية بحتة؛ ولكن المشترك فيها أن الرحالة ينقلها بصورة واقعية ذاتية، لا تخلو من التعليقات الشخصية، والسيطرة الثقافية اللاواعية، والتي يكتسبها بطريقة تربوية من بيئة نشأته؛ والتي تمرر بطريقة سلسلة خفية في المتن الرحلي، تظهر بصورة أنساق ثقافية خفية.

ولهذا نجد أن رحالة الغرب قد قاموا برصد مختلف المظاهر الثقافية للمجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، بما في ذلك ممارساتهم اليومية، وعاداتهم الدينية، واهتماماتهم الثقافية والعلمية، ومعاملاتهم السياسية مرتكزين في ذلك على خلفياتهم التربوية، ومكتسباتهم القبلية، قبل اعتمادهم على تصوير واقع أيامهم، وأحداث رحلاتهم.

ومن هذا المنطلق قمنا بصياغة إشكالية بحثنا على النحو التالي: كيف قام الرحالة الغربيون بتصوير الواقع الاجتماعي في الجزائر العثمانية؟ وقد اعتمدنا في دراستنا على المنهج الثقافي.

أولا. الأنساق الثقافية:

تعد الأنساق الثقافية المادة الخام للنقد الثقافي، فهي الهدف الذي يرمي إليه، ويصبو للوصول إليه والكشف عنه لأنه مضمّر، والمضمّر هو المخفي الذي لا يظهر، المخزّن في لاوعي المؤلف، واكتسبه من الثقافة المهيمنة التي ترعرع في أحضانها؛ حيث يعرّف الغدائي النسق الثقافي المضمّر بأنه نسق يكمن خارج "محيط الوعي، وهو يتسرب غير ملحوظ من باطن النص، ناقضا منطق النص ذاته، ودلالاته الإبداعية، الصريح منها والضمني، وهذه بالضبط لعبة الألعايب في حركة الثقافة وتغلغلها غير الملحوظ عبر المستهلك الإبداعي والحضاري، مما يقتضي عملا مكثفا في الكشف والتعيين"¹، وهذا يعني أن النسق الثقافي هو الدلالة الثقافية التي تتجاوز الدلالة الصريحة التي تعبر عنها الجملة النحوية، وتتجاوز الدلالة البلاغية الضمنية التي تعبر عنها الجملة المجازية الإيحائية؛ حيث إن هذه الدلالة الثقافية تكون مضمرة في لاوعي المؤلف وهي دلالة جامعة شكلتها الهيمنة الثقافية، ولدت في اللاوعي الجمعي منذ نعومة الأظافر تربي عليها وتغذى عليها العقل الباطن، فتحكمت بمسار الحياة في مختلف مناحيها، ورسمت محيطها، وزرعت قيودها، لهذا لا يستطيع المبدع تجاوزها بشكل لاواعي، فتضمّن بين أسطره الإبداعية، وتشكل ما يعرف بالأنساق الثقافية المضمرة.

ولهذا فإن النسق الثقافي المضمّر "يتحدّد عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة التّسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمّر، ويكون المضمّر ناقضا وناسخا للظاهر"²؛ ومنه فإن النسق الثقافي المضمّر هو كل ما يؤثر في ذهن الكاتب، ولا يمكنه التخلص من سيطرته، ولا الخروج عن قيوده، وهذا المضمّر لا يظهر على سطح اللغة الجمالية التي تمثل النسق الظاهر.

ثانيا: تجليات الأنساق الثقافية الجزائرية في الرحلات الغربية خلال العهد العثماني:**1. النسق الاجتماعي:**

النسق الاجتماعي هو دراسة الأدب من منظور اجتماعي؛ للكشف عن علاقات التأثير والتأثير بين الأجناس الأدبية والحضاري، حيث يعرّف علماء الاجتماع النسق الاجتماعي أنه "يتألف من فردين أو أكثر يتفاعلون مع بعضهم على نحو مباشر أو غير مباشر في ظل موقف معين، يمكن أن تحكمه حدود فيزيائية وإقليمية ومجموعة من المراكز والأدوار الاجتماعية"³. وقد وضع الرحالة الغربي حالة المجتمع الجزائري، من عادات وتقاليد اجتماعية وممارسات دينية، واهتمامات علمية، خلال العهد العثماني على النحو التالي :

1.1. عادات المجتمع الجزائري وتقاليد:

لقد تنوعت وتعددت عادات وتقاليد الفرد الجزائري منذ القديم، فقد ذكر الرحالة الألماني ج.أ. هابنسترايت (J.E. Hebenstreit) أن عادات الجزائريين وممارساتهم اليومية تستند إلى الشريعة الإسلامية وقوانين الدين الإسلامي⁴؛ الذي يعد الدستور الأول والذي لا بد من تطبيق بنوده على الخاص قبل العام، حسب ما يمليه القرآن الكريم، وسنة النبي محمد - صلى الله عليه وسلم -؛ باعتبار أن "الدين من أهم الركائز التي تشكل شخصية الإنسان في المجتمع، وتفرض وجوده عليه، وهي سمة يتحل بها بني البشر كلا حسب معتقده"⁵. فجاء المجتمع الجزائري يتصف بالعدل والكرم والمساحة؛ خاصة مع غير المسلمين؛ وقد أورد الرحالة هابنسترايت بعض الصفات في تعامل الجزائريين مع غيرهم، أهمها:

- حسن المعاملة مع الآخر.

- الحلم عند المقدرة؛ حيث يطلب أن يكونوا رحيمين بالمنهزمين والأسرى، كما قارن الرحالة وضعية الأسرى في بلاد المسلمين في بلاد النصارى بمرسليها، والذين يمارس عليهم أشد أنواع العذاب، وربطهم بالأغلال الثقيلة، والممارسات الوحشية، والعكس من ذلك في الجزائر؛ أين يقضي الأسرى نهارهم أحرارا مقابل دفعهم مبلغا ماليا كل شهر ليطلب منهم في المساء التوجه إلى مقراتهم التي لم تكن أبدا غير مريحة بالنسبة إليهم⁶.

فالرحالة هنا على الرغم من ترجيح كفة المعاملة الجيدة للمجتمع الجزائري، إلا أنه يوضح أن هذه المعاملة الحسنة بسبب ذلك المقابل المادي، الذي يدفعونه مقابل حريتهم المؤقتة، وسلامتهم.

- يتخلص الأسير المسيحي من أسرته وتقييد حريته في حالة اعتناقه للإسلام إلا أنه "لا يحظى بالترحيب، لأنه ليس فقط تسبب في خسارة سيده بعد أن تسقط الفدية عنه بإسلامه، وإنما ينظر إليه على أنه لم يعتنق الإسلام عن اقتناع"⁷ ما يؤكد تعصب الجزائريين في مسألة الدين، وجديتهم في أمره.

- كما لهم حرية ممارسة المعتقد دون ضغط وحرية، والحصول على محاكمة عادلة، إذا ما تعرض لأي اعتداء ولو من طرف سيده، إذا أثبت ذلك⁸.

ومن أهم عاداتهم الدينية هو المحافظة على الصلوات الخمس، وهو ما جعل "المساجد مفتوحة طيلة اليوم لأداء الصلوات... في النهار والليل، وبواسطتها يتم تقسيم اليوم فيقال ساعة آذان الصبح والظهر والعصر، أي وقت الصباح ومنتصف النهار والمساء"⁹. ومن عاداتهم الدينية أيضا إضافة إلى ذهابهم إلى مكة وشدة تعلقهم بالإسلام والرسول - صلى الله عليه وسلم -؛ حيث يقول الرحالة الألماني "والجزائريون، من أتباع محمد... يقومون في الغالب بالحج إلى مكة المكرمة"¹⁰. إضافة إلى صوم رمضان والاحتفال بالأعياد الدينية.

كما اهتم الرحالة بتصوير عادات أهل الجزائر في تنوع ملابسهم واختلافها، حسب البيئة والشخصية والجنسية، وأبرز من خلالها الاختلاف الطبقي للمجتمع الجزائري، سواء في القبائل (البادية)، أو المدينة؛ حيث يرى الرحالة الألماني ج.أ. هابنسترايت بأن ملابس أهل الريف تختلف حسب مقتضيات الوقت، حالة الجو، وحسب الفصول والمناسبات، كما اعتبر بأن أفخم ما يرتديه القبائلي هو البرنوس، والذي يميز قائد القبيلة¹¹، وعليه -حسب الرحالة- أن البرنوس هو اللباس الذي يميز شيخ القبيلة عن باقي العناصر البشرية السكنية التي تمثل أهل القبيلة.

وقد قام الرحالة Thomas Shaw (توماس شو) بوصف البرنوس قائلا بأنه نسيج من صوف، والدراوات والتشاكرك، ويتكون من قطعة واحدة، ضيقة حول الرقبة ولها غطاء يغطي الرأس، وهذه القطعة واسعة جدا من الأسفل مثل العباءة، وقد يزين ببعض النقوش المطرزة في أسفله¹². بالإضافة إلى الحايك الذي يعتبر اللباس المشترك بين الرجال والنساء في القبائل على اختلاف وضعياتهم الاجتماعية، الفرق يكون في طريقة ارتدائه، حيث الرجال يتحكمون فيه من خلال حزام، أما النساء فإنهن يلففن أنفسهن به مع تغطية وجوههن من خلال منديل مثلث مطرز جميل، وهناك من النساء اللواتي ينتمين لطبقة النبلاء في القبائل من تصيف فوق هذا الوشاح ما يسمى بالسَّرمَة (une Sarmah) مزينة بصفائح رقيقة مرنة من الذهب أو الفضة، منقوشة بأشكال مختلفة، ومقطعة مثل الدانتيل¹³. وهي عبارات تبرز حياة الستر والحياء التي كانت تعيش في كنفها المرأة الجزائرية الريفية.

أما بالنسبة لأهل المدينة فقد فصل الرحالة (Diego de Haedo) ديبغو دو هيدو في طريقة لباسهم؛ حيث يرى بأنهم كثيرا ما يعتمدون على الملابس الفضفاضة، ولباسهم يعتمد على عدة طبقات؛ حيث يرتدون في بداية الأمر قميصا من الكتان كبيرا جدا طوله متوسط فوق سروال عريض ذو طيات، وإذا كان الجو باردا فإنهم يضيفون سترة من القماش الملون لا تتجاوز أكمالها المرفق، وهناك من الأفراد الأثرياء من يضيف ثوبا آخر فوق السترة يسمى بالقفطان، وقد شبه الرحالة بثوب الكاهن، ويقومون بتثبيت القفطان بحزام يزين بوجود خنجر في أيسر الحزام¹⁴.

أما النساء في المدينة؛ خاصة في الجزائر العاصمة، فالأمر مختلف قليلا عما سبق؛ حيث يتكون لباسهن من طبقتين أو أكثر، وعادة ما تتمثل الطبقة الأولى في ارتداء قميص من الكتان الناعم، طويل وعريض، بدون طوق، ليضفن فوق هذه الطبقة إما ملاء مربعة الشكل، أو المالاسكا وهو نوع من الملاء ولكنّها أكبر، وتكون مستطيلة الشكل، وسواء الملاءة أو المالاسكا فإنهن يلففن بها أنفسهن¹⁵، كما يفعلن نساء القبائل مع الحايك،

وإذا كان الجو باردا فإنهن يفضن فوق القميص الأول قميصا آخر من القماش العادي أو من الحرير¹⁶، حسب الحالة الاجتماعية للمرأة.

2.1. الاهتمامات العلمية:

اهتم الرحالة الغربيون برصد مظاهر الثقافة والتطور العلمي في المجتمعات العربية عامة، والجزائرية على وجه الخصوص - في فترة سبقت فترة مهمة من حياة الجزائريين-؛ حيث صوروا مشاهد التعلم والآخر المثقف فالرحالة توماس شاو في رحلته العلمية إلى الجزائر، بين أن الجزائريين قد أهملوا العلوم في هذه الفترة من الحكم العثماني، على الرغم من كون العرب هم الأوائل الذين انبثقت منهم علوم الرياضيات، وعلوم الفلسفة، والطب¹⁷ ويرجع الرحالة سبب هذا التراجع إلى حياة التشرد والاستبداد الذي كان يعاني منه عرب الجزائر والبربر من طرف الأتراك، ما جعلهم يسعون من أجل راحتهم وحريةهم، بعيدا عن العلم والتعلم.¹⁸ وقد كان القرآن من أهم الأساسيات التي لا بد من تدريسها في الجزائر العثمانية حفظا وفهما، مع تعلم مختلف الشعائر الدينية¹⁹؛ وبهذا كان التفقه في الدين هو الجانب العلمي البارز في الجزائر.

2. النسق السياسي:

من خلال دراستنا للنماذج المختارة من بعض الرحلات الغربية التي بين أيدينا، لاحظنا اهتمام الرحالة بتصوير الحياة السياسية في الجزائر، بشكل معلن وصفا لسياسة السلطة التي تمثل سياسة التحكم في سلوك المجتمعات، وضبطها بمجموعة من البنود الدستورية والأحكام القانونية التي لا يمكن تجاوزها. حيث يرى الرحالة هابنسترايت بأن: "الباب العالي قد ظل يرسل إلى الجزائر - باشاوات - يمثلون السلطان حتى سنة 1790 ... ثم أصبحت بعد ذلك دولة مستقلة تحت سيطرة الـ"تاي"²⁰، وهذا الأخير يتم اختياره من طرف الجيش الذي يمثل السلطة العليا في البلاد؛ حيث "يستطيعون حسب النظام العسكري أن يصلوا إلى أعلى المناصب"²¹، وهذا المنصب يعرض صاحبه لخطر الاغتيال من طرف الجيش؛ خاصة إذا لم يخدم مصالحه ويحقق غاياته؛ حيث يقول الرحالة في هذا الصدد بأن الجيش "يقيل الـ"تايات" ويعين آخرين حسب رغبته، وغالبا ما تنتهي حياة الـ"تايات" بالقتل؛ حتى أصبح الـ"تاي" الذي يموت دون اغتيال... كأنه ولي صالح (محل تقدير)... لكنها نهاية نادرة"²². كما يوضح الرحالة هابنسترايت أن نظام الحكم في المدينة يكون بيد الـ"تاي"، والذي تكون محكمته في إحدى قاعات قصره وهي المحكمة الأساسية العليا التي تهتم بالشؤون الكبرى للبلاد والقضايا السياسية الخارجية، إضافة إلى محكمة القاضي التي تمثل محكمته المرحلة الأولية للاهتمام بشؤون وقضايا المجتمع الداخلية في المدينة، وذلك في مكان يسمى بمجلس القضاء²³، أما في الريف "تعود سلطة الحكم

وقضايا العدل، وشؤون أهله إلى أغا الصباحية، ويكون من أهل الداي، أما عن مكان المحكمة، فتنصب لها خيمة خاصة²⁴. فالرحالة الغربي حاول التركيز على الجانب السياسي ومظاهره.

3. نسق الآخر:

النسق عبارة عن ارتباط مجموعة من العناصر ببعضها؛ بحيث تكون كلاً منظماً، في آراء فكرية مترابطة، وقد عرف ابن سالم حميش الآخر قائلاً: "في تاريخ الفكر، كما في العلوم الإنسانية، احتلت موضوعات الآخر - وما تزال - مكانة بارزة نظراً لارتباطها الجدلي بموضوعات أساسية ملازمة: الأنا/الذات - الهوية (...). فيصير الآخر بالمفرد والجمع الذي نعيش معه تجارب كالقراءة والصداقة والحوار، أو كالمناصفة والخصومة والعداء... وهذه التجارب وسواها تحدد بتنوعها واختلافها طبيعة العلاقات ودرجتها إما على صعيد الوعي أو في حقل السلوك والفعل"²⁵، وهذا يعني أنّ الآخر هو كل ما هو خارج الذات فهو قد يقابلها أو يخالفها، فالآخر ليس فقط ما يعكس الأنا، وإنما قد يوافقها.

وقد رصد الرحالة الغربي الآخر في الجزائر العثمانية في عدة صور نذكر منها:

1.3. الآخر المهمش:

وصف الرحالة الغربي التهميش السياسي والاجتماعي الذي كان يعاني منه الفرد الجزائري في عدة محطات، حيث يورد هابسترايت الفرد الجزائري المهمش سياسياً في ظل السلطنة العثمانية حيناً تحدث عن "الحكومة[التي كانت] بيد الأتراك الخالص، أي الذين ينحدرون من آباء وأمهات أتراك، وهم في الغالب يُستقدمون من المشرق"²⁶؛ حيث يتم الاختيار لمنصب الداي أحد الأتراك بالإجبار. أما الشعب الجزائري الأصيل مُنع من التجنيد؛ إذ ينظر إليه على أنه مجموعة أفراد "عصاة أو خارجين عن القانون فلا يُجندون أحداً منهم في الحامية"²⁷، وليس لهم حق حمل السلاح²⁸ حتى تطبيق الأحكام عليه يكون بصورة علنية أمام الجميع، عكس الفرد التركي الذي تكون محاكمته بصورة سرية حفاظاً على كرامته²⁹. فالفرد الجزائري حسب الرحالة - قد مُنع من ممارسة حقه في المشاركة في سياسة بلده، ومهمة الدفاع عنه.

كما وصف الرحالة معاناة الشعب الجزائري من التهميش الاجتماعي، حيث أنّ "الأتراك [كانوا] ينظرون إلى الجزائريين نظرة يشوبها الاحتقار... ونفس النظرة [كانت] تحملها النساء التركيات عن الجزائريات"³⁰، إضافة إلى حياة التبعية والهوان التي كان يعاني منها الفرد الجزائري، لدرجة أنّ "أملأكم معرصة للمصادرة لأقل خطأ يصدر منهم في حق الأتراك"³¹، ومقارنة مع غيرهم من الأتراك والأسرى؛ حيث يرى صاحب الرحلة أنّ هؤلاء الأتراك والأسرى عادة ما يحظون باحترام الأتراك³². فحسب هذه النصوص الرحلية الغربية الفرد الجزائري كان يعيش مأساة في وجود الآخر التركي.

2.3. الآخر المثقف:

يمثل المثقف الفرد الخادم للإنسانية بمجموعة أفكاره ومعارفه وعلومه وفنونه؛ والتي تمثل صورة عن ثقافته الشخصية وثقافة مجتمعه؛ حيث يعترف بأنه "فرد وهب قدرة لتقديم وتجسيد وتبيين رسالة أو رؤية أو موقف أو فلسفة أو رأي إلى جمهور ولأجله أيضا، وهذا الدور له مخاطره أيضا ولا يمكن للمرء أن يلعبه دون شعور بأن مهمته هي طرح الأسئلة المركبة علنا، ومواجهة التزمت والجمود"³³، وهذا يعني بأن المثقف هو ذلك الفرد (أو الجماعة) العاقل الذي يسخر عقله وعلمه وفنه في خدمة المجتمع وتقديم المعارف وتوجيه الرسائل دون تقييد.

وحسب الرحلات التي نحن بصدد دراستها، فإن المثقف في الجزائر العثمانية يقتصر على من يُدرّس القرآن ويدرسه ويحفظه، إضافة إلى بعض العلوم المختلفة والمعارف التي يكتسبها الشباب من العرب أو الأتراك؛ من خلال ممارساتهم اليومية؛ خاصة أنهم لن يسمحوا لأطفالهم بمزاولة الدراسة لمدة طويلة؛ "حيث أنهم يتجهون بعد ثلاث أو أربع سنوات إلى الحياة العملية، ما يجعل الكثير منهم يفقد جزءا مما تعلمه من ذاكرته؛ فبعضهم يواجه لمزاولة الحرف اليدوية، والبعض الآخر ينضم لصفوف الجيش، أما القليل الذي يتمسك ببعض معارفه فيتمثلون في ضباط الجيش (السجاكنتار)؛ الذين يعملون في دفع الجزية، وفي مكاتب الجمارك الذين يتعاملون مع الحسابات"³⁴. كما يظهر بعض الأفراد المثقفين في مجالات أخرى مثل: علم الفلك لإدراك مواقيت الصلاة، وبعض الملاحة، كونهم يتمنون بالبحر وموانئه، ما يلزم وجود مخطط بحري، والبعض من الكيمياء في كيفية تقطير المياه³⁵. إضافة إلى الثقافة الطبية التي كان يتميز بها بعض أهالي القبائل العربية والبربرية في الجزائر والتي أعجب بها الرحالة شاو؛ حيث يرى بأنهم أكثر فطنة وذكاء من الأتراك؛ إذ يعتمدون على العديد من الوصفات الطبية الطبيعية في معالجة الأمراض كعلاج الروماتيزم، والمغص، وأمراض الزكام والإسهال³⁶. وهو ما يؤكد القدرات الفكرية والثقافية التي كانت يتمتع بها الأفراد الجزائريين آنذاك.

وبما أنّ المثقف ليس فقط في الجانب الأدبي والعلمي، بل أيضا يمثل الجانب الفني -يقول جوليان-: "المثقفين الحقيقيين هم... الذين ينشدون السعادة في ممارسة فن ما أو علم ما"³⁷، الموسيقي [مثلا]؛ حيث اعتبرهم الرحالة شاو فتانين بالفطرة؛ إذ عبر الرحالة عن مدى إعجابه بالنغمت الموسيقية البسيطة التي يتمتع بها أهل الجزائر، والتي اعتبرها أحسن من الموسيقى التركية غير الحيوية على الرغم من كونها أكثر منهجية من الموسيقى المغاربية الجزائرية³⁸. فالرحالة يرى أن الوجود التركي حال بين الجزائريين وحياة التشق والتعلم، على الرغم من الإمكانيات التي يمتلكونها، ولكنها مغيبة بسبب السيطرة التركية التي حالت بينهم وبين ممارستهم العلمية والثقافية.

3.3. صورة المرأة :

كما نالت المرأة الحظ الوافر لدى الرحالة الغربي، خلال رحلته في الجزائر في العهد العثماني، فتحدثت الرحالة الغربي عن المرأة خلال العهد العثماني، وأورد صفاتها وممارساتها، فنجد هابنسترايت معجب باحتشامها ومنهج حياتها؛ حيث وصف "غيايبن عن الحياة العامة، واحتشامهن الشديد فلا يسرن في الأزقة بدون حجاب، وحتى منازلهن تكاد أشعة الشمس لا تصل إليها، وعندما يسافرن على ظهور البغال يكتنّ محتبئات في ستائر غريبة"³⁹؛ ونجد في تعبيره هذا القليل من الشفقة عليها؛ إذ يرى بأنها في سجن على الرغم من تميزها عن غيرها من النساء الأوروبيات في حياتها، لكن ليس لها متنفس؛ ومثال ذلك ما حصل له مع أحدهم طلب منه أن يعالج زوجته، وبمجرد أن طلب منه الرحالة رؤيتها لمعاينتها رفض ذلك بشدة، وفضل الموت على الكشف عليها.⁴⁰ فالمرأة في الجزائر إضافة إلى تسترها - حسب الرحالة شاو- تعاني من التهميش خاصة مجال التعلم، فالتعلم يقتصر على الذكور فقط، فالمرأة مغيبة عن الواقع الثقافي في الجزائر العثماني؛ حيث يقوم الآباء الأتراك والجزائريون بإرسال أبنائهم الذكور فقط حين بلوغهم سن السادسة لتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم.⁴¹ وقد رأى الرحالة (Diego de Haedo) ديفغو دو هيدو يرى في رحلته أنّ المرأة في الجزائر العثمانية لا تقوم سوى بالأمور النافهة التي لا ترقىها إلى مستوى ثقافة النساء النصرانيات واليهوديات، يقول في رحلته أنهم يفضلون التجمعات النسائية في الأعراس، والحمامات الشعبية غير النظيفة، والزيارات المتكررة إلى منازل صديقاتهن وقريباتهن، والتزين، وزيارة القبور والأضرحة، والذهاب للدجالين والسحرة لنيل القبول لدى أزواجهن وتزويج بناتهن، وعدم الإكثار بمنازلهن ونظافتهن، فقط الثثرة وتبادل الأخبار غير المهمة، بدل الاهتمام بتربية أولادهن، وغيرها من المهن النافهة وتضييع الوقت في مهب الريح.⁴² وهي عبارات تدل على جهل المرأة في الجزائر في العهد العثماني.

أما الرحالة هابنسترايت فرأى أنّ المرأة في الريف العربي تعاني من التهميش والعمل كعبدة عند الرجل؛ حيث وصف معاناة المرأة من قسوة العمل، وأخذها لوظيفة الزوج الذي ينعم في راحة تامة؛ إذ أنّ: "النساء عند هؤلاء الناس مستحرات للعمل، يعتنين بالمواشي ويشغلن بالزراعة، وهذا ما يجعل الرجال.. يعيشون حالة فراغ"⁴³. فالمرأة الجزائرية حسب هذه الرحلات سواء في المدينة أو الريف- كانت تعاني من حياة التخلف والعبودية.

الخاتمة:

نخلص في ختام هذه الدراسة إلى ما يلي:

◀ يعد أدب الرحلة أدبا تصويريا ناقلا لثقافة الآخر، بصورة تمزج بين الواقعية والذاتية.

- ◀ تمثل الأنساق الثقافية الثقافة الجماعية الراسخة في اللاوعي، وتكون مضمرة، ومخفية بين الجمل البلاغية الجمالية والإبداعية.
- ◀ صور الرحالة الغربي المجتمع الجزائري القائم على مبادئ الدين الإسلامي؛ الذي يدعوا إلى السلم والتسامح والتآخي وحسن المعاملة مع من كان على غير الإسلام ديناً.
- ◀ عبرت الرحلات الغربية عن حالة المجتمع الجزائري في العهد العثماني الذي كان يعاني من شدة الحكم العثماني على أهل الجزائر الأصليين، والتميز بينهم وبين الأتراك سواء في تطبيق الأحكام أو المعاملات اليومية.
- ◀ هذه المعاناة حالت بين الجزائريين والتعلم، ما جعل الرحالة يتأسف على ضياع فرصة الشعب في التعلم أمام البحث عن حريته وراحته؛ خاصة لما لهم ذكاء وفطنة في مجال الطب والهندسة وموسيقاهم الجميلة، على غرار الآخر التركي الذي كان ينعم بالحرية والراحة التامة؛ إلا أنه لم يهتم بالتعلم؛ بل كان همه في زيادة أمواله، والمحافظة على ثرائه.
- ◀ اقتصر التعلم في الجزائر العثمانية على تحفيظ القرآن وتدريبه.
- ◀ صور الرحالة الغربيون معاناة الآخر الجزائري المهمش في بلده وعلى أرضه أمام مركزية الآخر التركي الذي يتمتع بالحرية المطلقة في ظل السلطة الجائرة.
- ◀ أبرزت هذه الرحلات سيطرة العنصر التركي على الحكم في الجزائر، واستبعاد الجزائريين عن السلطة، حتى أنهم لم تكن لهم الفرصة ليكونوا جزء من الجيش الحامي لبلادهم.
- ◀ عبر الرحالة الغربي عن إعجابه بحياء المرأة الجزائرية في تسترها؛ إلا أنه صور حياة السجن كما يرى — التي تعيشها؛ وذلك بسبب قيود المجتمع الذكوري الذي يميز الرجل على المرأة سواء في المدينة أو الريف.
- ◀ رأى الرحالة أن المرأة في الجزائر مستبعدة عن كل ما يملأ حياتها من علم ومعرفة، حتى في حفظ القرآن وتعلمه فالأمر يقتصر فقط على الذكور، وهو ما جعلهن يركزن على توافه الحياة وابتعادهن عن حياة التنشيف والتطور.
- ◀ عاشت المرأة الريفية كخادمة تقوم بمختلف المهام داخل المنزل وخارجه، تسعى فقط لراحة الزوج الذي يعيش في راحة تامة وفراغ تام.

وفي الأخير يمكن القول أن هذه الترحلات ترى من الوجود التركي في الجزائر سببا في معاناة أهله؛ حيث استولوا على حكمه وعلمه وسيطروا على مختلف المجالات فقط؛ لصالح الفرد التركي الذي كان يعيش حياة السيد، والجزائري يعيش حياة العبد.

هوامش:

- ¹ عبد الله الغدائي، س 2002، النقد الثقافي - رؤية جديدة-، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، المجلد 1، العدد 59، ص 50.
- ² عبد الله الغدائي، س 2005، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط 3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية، ص 59.
- ³ محمد عبد المعبود مرسى، د س، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي، ط 1، مر و تق: أحمد رأفت عبد الجواد، دار القسم، السعودية، ص 102.
- ⁴ ج.أ. هابنسترايت، دس، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس، دط، تر: ناصر الدين سعيد وفي، تونس، دار المغرب الإسلامي، ص 46.
- ⁵ جاسم محمد عباس، دس، الأنساق الثقافية في شعر موسى حامدة، مجلة الجامعة العراقية، جامعة الأنبار، كلية الآداب، قسم اللغة والأدب العربي، ج 02، العدد 49، ص 225.
- ⁶ ج.أ. هابنسترايت، م س، ص 46.
- ⁷ المصدر نفسه، ص 46.
- ⁸ المصدر نفسه، ص 46.
- ⁹ المصدر نفسه، ص 38.
- ¹⁰ المصدر نفسه، ص 47.
- ¹¹ المصدر نفسه، ص 59.
- ¹² Thomas Shaw, Thomas Shaw: Voyage dans la Régence d'Alger, traduit par: J. Mac Carthy, paris, chez marlin, éditeur, 1830 p :112.
- ¹³ Thomas Shaw, p:118.
- ¹⁴ Diego de Haedo :Topographie et Histoire Générale d'Alger ,Traduit de L'espagnol par :Monnereau et A .Berbrugger, Présentation de : Jocelyne, Édition : Bouchene, p108.
- ¹⁵ Diego de Haedo p 141 .
- ¹⁶ Diego de Haedo p141.

¹⁷ Thomas shaw, p77.¹⁸ Thomas shaw, p77.¹⁹ Thomas shaw, p78.²⁰ ج.أ. هابنسترايت، م س ، ص 28 .²¹ م ن، ص 30.²² م ن، ص 31.²³ م ن، ص 39.²⁴ م ن، ص 39.²⁵ بن سالم حميش، سنة 2003، في معرفة الآخر، ط2 ، دار الحوار للنشر والتوزيع / سوريا ، ص5²⁶ ج.أ. هابنسترايت، م س، ص 29.²⁷ م ن، ص 29.²⁸ م ن، ص 32.²⁹ م ن، ص 39.³⁰ م ن، ص 29.³¹ م ن، ص 32.³² م ن، ص 32.³³ عامر محمد حسين+إياد محمد حسين، سنة 2017، مفهوم المثقف وتمثلاته في النص المسرحي العراقي (مسرحية أبي الطيب المتنبي أمودجا)، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، العراق، المجلد 7، العدد3، ص115، ينظر: أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، سنة 2007، ص 152 .³⁴ Thomas shaw, p :30.³⁵ Thomas shaw, p :80+79.³⁶ Thomas shaw, p :85-81.³⁷ لدارد ، سعيد ، سنة 1996، صور المثقف، د ط، تر: غسان غصن، مراج: منى أنيس، دار النهار، بيروت/لبنان، ص23.³⁸ Thomas shaw, p :92.³⁹ ج.أ. هابنسترايت، م س، ص 47 .⁴¹ Thomas shaw, p :78.⁴² Diego de Haedo :p143 , 147 .

⁴³ج.أ.هانس ترايت، م س، ص 59.

قائمة المراجع:

- 1- إدوارد ، سعيد ، سنة 1996، صور المثقف، د ط، تر: غسان غصن، مراج: منى أنيس، دار النهار، بيروت/لبنان
- 2- بن سالم حميش، سنة 2003، في معرفة الآخر، ط2، دار الحوار للنشر والتوزيع /سوريا.
- 3- ج.أ.هانس ترايت، دس، رحلة العالم الألماني إلى الجزائر وتونس وطرابلس، دط، تر: ناصر الدين سعيد وني، تونس، دار المغرب الإسلامي .
- 4- عامر محمد حسين +إياد محمد حسين، سنة 2017، مفهوم المثقف وتمثلاته في النص المسرحي العراقي (مسرحية أبي الطيب المتنبي أمودجا)، مجلة مركز بابل للدراسات الإنسانية، العراق، المجلد 7، العدد3، ص(111-150)، ينظر: أميرة علي الزهراني، الذات في مواجهة العالم المركز الثقافي العربي، بيروت/لبنان، سنة 2007.
- 5- عبد الله الغدائي، س2002، النقد الثقافي -رؤية جديدة-، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، المجلد1، العدد59 .
- 6- عبد الله الغدائي، س2005، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ط3، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المملكة المغربية.
- 7- محمد عبد المعبود مرسى، د س، علم الاجتماع عند تالكوت بارسونز بين نظريتي الفعل والنسق الاجتماعي، ط1، مرو تق: أحمد رأفت عبد الجواد، دار القسم، السعودية.
- 8- Diego de Haedo :Topographie et Histoire Générale d'Alger ,Traduit de L'espagnol par :Monnereau et A .Berbrugger, Présentation de : Jocelyne, Édition : Bouchene.
- 9- Thomas Shaw,: Voyage dans la Régence d'Alger, traduit par: J.Mac Carthy, paris, chez marlin, éditeur, 1830.